

الباب السادس

كروب النجاة من المخالفات

والمعاصي



لقد تعرضنا فى الأبواب السابقة إلى التذكير ببعض الشدائد التى تصيب الإنسان من ضيق فى معيشتة، أو مرض يلحق بصحته، أو ما يتعلق بأحوال الاجتماع البشرى، سواء أكان ذلك بالنسبة له فى خاصة نفسه، أو فى علاقته بأفراد أسرته الصغيرة، أو بأفراد مجتمعه الكبير، وكل هذه الشدائد مقدور عليها؛ لأن الصبر فيها من أعظم أسباب العون عليها.

وبقى أن نذكر كرباً آخر، إنه كرب المخالفات والمعاصى، فهو من أشد الكروب على النفس التواقفة إلى مغفرة الله، فلا يدرك شؤم المعصية إلا من توهج نور الإيمان واليقين فى صدره، وحينئذ يود لو يفتك نفسه من هذه الأغلال بكل مرتخص وغال، فللمعاصى غصص وعقاييل.

### ١- تضيح كرب أبى البشر آدم عليه السلام

لقد تعرض أبو البشر آدم - عليه السلام - إلى اختبار تكليفى من الله - تعالى - عقب خلقه ونفخ الروح فيه، حيث قد بوأه الله الجنة هو وزوجه حواء، وأحل له فيها سائر الطيبات، ولم ينهه إلا عن قربان شجرة بعينها: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾<sup>(١)</sup> وهناك عز على إبليس اللعين، طريد هذه الجنة، عز عليه أن يرى آدم وزوجه يتقلبان فى هذا الحبور والسرور، فنفت فى روعهما من سعار حقه ما زلت به أقدامهما، فالؤمن غرٌّ كريم، والكافر خبٌ لئيم: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)﴾

(١) سورة طه : ١١٨ ، ١١٩ .

فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سُوءَ آتِهِمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴿١﴾ .

وهنا حل بآدم وزوجه الشقاء، وزحفت على رأسيهما جيوش الكروب والهموم، وضاعف من همومهما عقاب الله لهما المتمثل في قول الله - تعالى :- ﴿... وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢) فأخذ آدم يجرى في أرجاء الجنة وهو يسمع النداء الإلهي من جديد: «أفراراً مني يا آدم؟»، فقال في خجل وحزن، وبآل كاسف وقلب حزين: «بل حياء منك يارب العالمين» وبهذا فقد شقى آدم بالمعصية شقاء لا حدود له، وهكذا يشقى العصاة من ذريته بسبب ذنوبهم.

وقد ترفق الله بآدم أبى البشر، وفتح له باباً من أبواب رحمته، حيث قد أقر بذنبه، فالإقرار بالذنب أول طريق التوبة، فقال ما أورده القرآن الكريم: ﴿... رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣) ومن الأدعية التي ألهم الله بها آدم - عليه السلام - ما قاله مجاهد عند بيانه للكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه: «الكلمات هي: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم» ونحن نرى أن هذه الكلمات تخرج أنوارها من مشكاة الآية الكريمة.

ولقد فرج الله كرب آدم وزوجه بالتوبة عليهما، وقبول عذرهما، وهدايتهما إلى طريق الفلاح، وكان فى هذا الذى صدر منهما باب أمل ورحمة من الله للعاصين، كى ينهضوا بعد كبواتهم، ويواصلوا المسير بعد عثراتهم، ففى

(١) سورة الأعراف : ٢٠ - ٢٢ .

(٢) سورة الأعراف : ٢٢ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٣ .

الحديث الشريف: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» فمن ارتكب معصية ثم رجع إلى الله في إخلاص وصدق، فحق على الله وواجب عليه من غير موجب أن يفتح له أبواب التوبة والقبول، كما يتفضل عليه فيثيبه خيراً عن كل ما تعرض له من آلام وخز الضمير، ومحاولات التخلص من آثار معصيته، يقول الله - تبارك وتعالى - عن آدم: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (١).

وصدق رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى: «لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٢) وروى الطبرانى وابن عساكر أن النبى ﷺ قال: «والذى نفسى بيده ما خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

فارحمنا اللهم بترك المعاصى أبدأ ما أبقيتنا، وارحمنا أن نتكلف ما لا يعيننا، وارزقنا حسن النظر فيما يرضيك عنا، يا أرحم الراحمين.

## ٢- تضييع كرب نبي الله سليمان عليه السلام

إن نبي الله سليمان - عليه السلام - هو ابن نبي الله داود - عليه السلام - وهما من أنبياء بنى إسرائيل، ولقد امتن الله - تعالى - عليهما بمننه الكثيرة، ونعمه الغزيرة الوفيرة، على نحو ما جاء فى الكتاب العزيز: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (٣) ولقد أجاب الله - تعالى - دعاء سليمان حينما سأله قائلاً: ﴿رَبِّ

(١) سورة طه : ١٢٢ .

(٢) سورة الشورى : ٣٠ .

(٣) سورة النمل : ١٥ - ١٧ .

اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب (٣٥) فسخرنا له  
الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب (٣٦) والشياطين كل بناء وغواص (٣٧)  
وآخرين مقرنين في الأصفاد (٣٨) هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب (١).

ويقول ربنا عن فضله على سليمان: ﴿وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاَ شَهْرًا وَرَوَّاحُهاَ  
شَهْرًا وَأَسَلَّنا لَهُ عَيْنَ القَطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعمَلُ بَينَ يَدَيهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَريغُ مَناهُمُ  
عَن أَمْرنا نُذِقُهُ مِنا عَذابِ السَّعِيرِ (١٦) يَعمَلونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنا مَحارِبِ وَتَماثِيلِ  
وَجِفاً كَالجَوابِ وَقُدورِ رَاسِياتِ اَعمَلوا آلَ داودَ شُكْراً وَقَليلٌ مِنا عِبادِ  
الشُّكُورِ (٢)﴾.

وكان سليمان - عليه السلام - رجلاً غزاًءً (أى كثير الغزو فى سبيل الله) فما  
سمع بملك فى ناحية من الأرض إلا قاتله داعياً إياه للإيمان بالله - تعالى -  
وكان يساعده فى ذلك حمل الريح لآلة حربته وجنوده، ولقد بلغ من حب  
سليمان للجهاد ما أوقعه فى كرب شديد؛ ذلك أنه رغب فى أن يكون له عدد  
غفير من الفرسان من صلبه، وكان له عدد من الأزواج قد يصل السبعين، ولم  
يكن التعدد على هذا النحو محظوراً فى شرعه، فما كان منه إلا أن أقسم فى  
إحدى الليالى ليطوفن على نساته، وكل واحدة منهن تنجب له ولداً يكون فارساً  
ومجاهداً فى سبيل الله - تعالى - ولكن فى غمرة مشاعره، وطمعه فى الخير  
ورجائه إياه نسى أن يتبع قسمه هذا بلفظ المشيئة فيقول: إن شاء الله تعالى،  
وذلك مروى عن أبى هريرة عند الشيخين وغيرهما، وفيه يقول النبى ﷺ: قال  
سليمان: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى  
سبيل الله تعالى ولم يقل إن شاء الله» وفى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «والذى  
نفس محمد بيده لو قال (إن شاء الله) لجاهدوا فرساناً».

(١) سورة ص : ٣٥ - ٣٩ .

(٢) سورة سبأ : ١٢ ، ١٣ .

لكن الذى ثبت عند البخارى «أربعون» بدلاً من «سبعين» وأن الملك قال له : قل : إن شاء الله ، فلم يقل ، وقصده أنه ترك الأولى فليس بذنب ، فلم تحمل له امرأة اللهم إلا واحدة حملت وجاءت بولد ناقص الخلقة ، فألقته القابلة على كرسى سليمان ليراه ، وهنالك وقع سليمان فى كرب شديد ، بلغ حد الفتنة ، وأن الذى حدث له إنما هو من جراء مخالفته الملك ، وهنا لم يكن أمامه من سبيل للخروج من ضائقته إلا بالرجوع إلى الله بسرعة فائقة ، فهو الذى يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ، ولقد صور القرآن الكريم هذا الكرب وتلك الشدة مقترنين بالدعاء والرجاء وطلب الملك الواسع من الله ، فى قول الله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ (١) .

ولقد تمثل تفريج كربيه فى غفران ذنبه ، وتسخير الريح والشياطين له ، يقول الله تعالى : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَأَخْرَجْنَا مَقَرِّينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴿٤٠﴾﴾ (٢) .

أرأيت - أيها القارئ الكريم - كيف يتفضل مولانا على عباده ، فيجبر كسرهم ، ويقليلهم من عشراتهم إذا ما تابوا وأنابوا ، بل أرأيت كيف يرضى خاطرهم ، ويعطيهم ما سألوا ، مما لم يعطه أحداً غيرهم من النبيين ، فيا كل مذنب ، ويا كل خطأ : اتخذ من خطئك قوة دفع تقربك إلى ربك فإنه فى شوق إليك .

### ٣- تفريج كرب نبي الله يونس عليه السلام

إن نبي الله يونس - عليه السلام - هو يونس بن متى ، ويدعى ذا النون - أى

(١) سورة ص ، الآيات : ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) سورة ص ، الآيات : ٣٦ - ٤٠ .

صاحب الحوت - كذلك، وهو نبي مرسل، أرسله الله إلى أهل نينوى ببلاد الموصل من أرض العراق، فدعاهم إلى الله، وبالغ في دعوته، ولكنهم لم يستجيبوا له، فبرم منهم وهاجر عنهم قبل أن يأمره الله بذلك، وكان الصواب أن ينتظر حتى يؤمر بذلك، ومن أجل هذا التصرف فقد وقع في كرب وشدة عظيمة، لا ينجى منها إلا عفو الله رب العالمين، فلما خرج وكان عليه أن يركب سفينة لكي ينتقل إلى الجهة الأخرى من النهر، وقد كانت السفينة مشحونة بالركاب، فما كان من السفينة إلا أن توقفت بهم في عرض النهر، فأعلن ربانها أن بها عبداً أبقاً (هارباً) من سيده، وكان من عادة البحارة أن السفينة إذا ركبها عبد أبق فإنها لاتجرى على الماء، ولما كانوا لا يعرفون ذلك الأبق على وجه التحديد، فإما أن يعلن هو عن نفسه، أو أن يُجرؤا قرعة لإخراجه، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس، فقال: نعم، أنا أبق، ورمى بنفسه في الماء، فابتلعه الحوت وهو مليم، أى آت بما يلام عليه، وذلك مصداق قول الله - تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup> وقد مثل له ذلك المستقرُّ الجديد لونا من الكروب الشديدة، فما كان من رب العالمين إلا أن ألهمه دعاء لتفريج كربته، فقال: «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» وفي ذلك يقول الله - تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن يونس - عليه السلام - حين بدأ له أن يدعو بالكلمات حين ناداه وهو في بطن الحوت فقال: ﴿اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فأقبلت الدعوة نحو العرش، فقالت الملائكة:

(١) سورة الصافات : ١٣٩-١٤٢.

(٢) سورة الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨.

يارب هذا صوت ضعيف مكروب من بلاد غريبة، قال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: لا يارب، قال: ذلك عبدى يونس، قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل نرفع له عملاً صالحاً متقبلاً ودعوة مستجابة؟ قال: نعم، قالوا: يارب أفلا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحة بالعراء.

وقد تمثل تفريج كرب هذا العبد الصالح والرسول الكريم فى إخراجه من بطن الحوت، وما أجراه الله عليه من النعمة، حيث أنبت عليه شجرة من اليقطين، وأمدته بالطفاه الخفية، وفى ذلك يقول الفتح العليم: ﴿فَبَدَّنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ (١).

وذلك كله بسبب توفيق الله له، وإلهامه التسييح فى تلك الظلمات السحيقة: ظلمة بطن الحوت، وظلمة النهر، وظلمة الليل، وصدق الله القائل: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٢).

أرأيت - أيها القارئ الكريم - كيف تأتى أطاف الله بالعبد حينما يلهمه الله التسييح؟! وصدق الرسول الكريم إذ يقول فيما رواه عنه سعد بن أبى وقاص: «دعوة ذى النون وهو فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم فى شيء قط إلا استجاب الله له» وعن سعد بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسمُ الله - عز وجل - الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطي، دعوة يونس بن متى» قال: قلت: يارسول الله: هى ليونس بن متى خاصة، أو لجماعة المسلمين؟ قال: «هى ليونس بن متى خاصة، وللمسلمين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله - عز وجل - : ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) فهو شرط الله لمن دعا به».

(١) سورة الصافات: ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) سورة الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٣) سورة الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨ .

فاللهم يامن نجيت يونس فى بطن الحوت، وحفظت الحبيب محمداً بنسج العنكبوت، نسألك يا حيّاً لا يموت: أن تضرب علينا سرادقات عزك، وأن تكفنا وتحوطنا بالطافك الخفية، من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيامنا وعن شمائلنا، يا ذا الجلال والإكرام.

#### ٤- تضيح كرب قوم يونس

إن نزول الشدائد والكروب بآحاد الناس وأفرادهم أمرٌ مشاهد ملموس، وتأتى ضراعة العبد على قدر وطأة الكرب وشدته، كما أن فرج الله يأتى لهذا المكروب أو ذاك من منطلق اطلاعه على دخيلة نفسه، فهو - سبحانه وتعالى - يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، أما أن ينزل كرب بأمة بأسرها فذلك من الأمور التى تقع فى حدود الندرة ودائرتها، والقرآن الكريم حينما يحدثنا عن قصة يونس - عليه السلام - مع قومه، فإنه يوقفنا على حقيقة كفرهم به وتكذيبهم له، الأمر الذى دعاه إلى الرحيل عنهم بغير إذن من الله، فوقع هو فى كرب شديد نجاه الله منه، وفى ذلك يقول الإمام على - كرم الله وجهه - : بعث الله يونس بن متى إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله - تعالى - ثلاثاً وثلاثين سنة، فلم يؤمن به إلا رجلان، كان أحدهما عالماً حكيماً، والآخر كان عابداً زاهداً وقال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما: لما أيس يونس من إيمان قومه دعا عليهم، فقبل له: ما أسرع ما دعوت على قومك! ارجع إليهم فادعهم أربعين ليلة أخرى، فإن أجابوك وإلا فإنى مرسل عليهم العذاب، فرجع فدعاهم سبعاً وثلاثين ليلة فلم يجيبوه، فقام خطيباً فيهم وقال: إنى محذركم العذاب إلى ثلاثة أيام إن لم تؤمنوا، ثم قال لهم: إن آية ذلك أن تتغير ألوانكم، فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم، فقالوا لبعضهم: قد نزل بكم ما قال يونس، وإننا لم نجرب عليه كذبا، فانظروا، فإن بات فيكم الليلة فآتمنوا من العذاب، وإن لم يبت فيكم فاعلموا أن العذاب مصبحكم، فلما كان ليلة الأربعين ورأى يونس تغير ألوانهم علم أن العذاب نازل بهم، فخرج من بين أظهرهم، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب.

ولقد تمثل كرب هؤلاء القوم، وتعاضمت شدتهم حينما رأوا آلات العذاب وأدواته على رؤسهم، وقد أصبحت منهم قاب قوسين أو أدنى، يقول سعيد بن جبير: تغشاهم العذاب كما يغشى الترابُ القبر إذا دخل فيه صاحبه، فقد أغميت السماءُ غيماً أسود هائلاً، يدخن دخاناً شديداً، فهبط هذا الدخان حتى غشى مدينتهم واسودت أسطح منازلهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك لامحالة، فطلبوا نبيهم يونس وبحثوا عنه في كل مكان فلم يجدوه.

فاستشعروا بشاعة ما حل بهم، وأن ذلك إنما كان بسبب إعراضهم عن دعوة نبيهم، فما كان منهم إلا أن ذهبوا إلى رجل من بقية علمائهم، ونحسبه ذلك العالم الحكيم الذي آمن بيونس وبدعوته، فقالوا له: قد نزل بنا من العذاب ما ترى، فما ترى؟ فقال لهم: «قولوا: يا حيُّ حينَ لا حَيَّ، يا حيُّ حينَ تحيي الموتى، لا إله إلا أنت» إنها دعوة صادقة من رجل صادق، ونصيحة مخلص لأمّة مأزومة مكروبة، فقذف الله في قلوبهم التوبة، وألهمهم الرجوع إليه، فلبسوا المسوح وخرجوا في صعيد واحد بأنفسهم ونسائهم وذريتهم ودوابهم في صورة أشبه بصورة البعث، نعم إنه بعث جديد لهم، وحياة جديدة تنتظرهم، فلا حياة على الحقيقة إلا في الرجوع إلى الله تعالى، فأظهروا الإيمان والتوبة لله، وأخلصوا النية، وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب والأنعام، فتعالت الأصوات، واختلط الحنين بالأنين، وتضرعوا لله قائلين: آمنا بما جاء به يونس.

منظر يجل عن الوصف، ويفوق كل تصور وخيال، لو قدر لها أن تقدم للناس في عرض واقعي لتقطعت منها نياط القلوب، ولأرجعت كل ضال وغاوي إلى حظيرة الحق الربانية..

ولقد بلغ من حسن توبتهم أنهم تراءوا المظالم التي كانت بينهم، حتى إن الرجل ليأتي إلى الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيقتلعه ويرده إلى صاحبه..

فكان من لطف الله بهم أن رحمهم واستجاب دعاءهم، وقبل توبتهم، وكشف عنهم العذاب، وأرسل لهم نبيهم يونس مرة ثانية، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١) وصدق رسول الله إذ يقول: «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء».

فاللهم يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك يا الله، ورد الناس إلى الحق والعدل، واهدنا صراطك المستقيم، وما ذلك عليك بعزيز يارب العالمين.

#### ٥- تضيح كرب كعب بن زهير بن أبي سلمى

إن «كعب بن زهير بن أبي سلمى» كان يقيم مع أخ آخر له يُدعى «بجيراً»، فلما فتح الله على رسوله وعلى المؤمنين مكة المكرمة، خرج منها ناسٌ هارين، وكان من بينهم «كعب» و«بجير»، ظل هذان الأخوان يجوبان صحراء الحجاز بأغنامهما حتى أتيا منطقة لبنى سعد، يقال لها: «أبرق العزاف»، وهي عبارة عن واد يوجد الماء فيه بوفرة، ويقع على بعد عشرين ميلاً من المدينة المنورة، وسُمي هذا الوادي بهذا الاسم؛ لأن أصوات الجن وعزفهم كانت تسمع بهذا الوادي، وقد استقر بهم المَقَام في هذا الوادي بعض الوقت، وما هي إلا فترة وجيزة حتى عرض «بجير» على أخيه «كعب» أن يرعى أنعامهما، وينطلق هو (بجير) إلى المدينة ليقابل النبي ﷺ ويتعرف على حقيقة دعوته، فإن وجده صادقاً اتبعه، وإلا فارقه، فقبل كعب، وانطلق بجير، حتى أتى رسول الله ﷺ فدخل هذا الرجل دائرة الهداية الكبرى، فسمع من رسول الله ما أثلج صدره، فأمن به وأقام عنده.

(١) سورة يونس : ٩٨.

فملا بلغ ذلك «كعباً» غضب وكتب لأخيه الرسالة التالية شعرا:

ألا بلّغنا عني «بجيرا» رسالة  
فهل لك فيما قلتُ ويحك هل لك؟  
سقاك بها «المأمون» كأساً رويّة  
فأنهلك «المأمون» منها وعلّكا  
ففارقت أسباب الهدى واتبعته  
على أي شيء وبتَ غيرك دلّكا؟  
على مذهب لم تلقَ أما ولا أباً  
عليه، ولم تعرف عليه أخاً لكا  
فإن أنت لم تفعل فلستُ بأسف  
ولا قائل إماماً عثرتَ : لعاً لكا

فلما بلغت هذه الرسالة «بجيرا» أخبر بها رسول الله ﷺ وهي أبيات تطفح بالحقد على الإسلام، وقلب الحقائق؛ حيث نسب لرسول الله الغواية بدلا من الهداية، فما كان من الرسول إلا أن أهدر دمه (أى دم كعب) وقال: «من لقي كعباً فليقتله» فكتب إليه بجير يخبره بذلك، ويدعوه للحضور مسرعاً؛ فإن رسول الله ﷺ لا يرد أحداً جاء إليه تائباً، ولا يطالب بما تقدم قبل الإسلام، فالإسلام يهدم ما كان قبله.

\* وماذا كان من أمر كعب بعد أن بلغه ذلك الخبر؟

\* لقد كان من أمر كعب بعد هذه الرسالة ما كان، لقد عرض نفسه على القبائل المجاورة لكي تجيره فأبت كلها، وهنا تملكه الغم والضيق، حتى لقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فلم يبق له ملجأ من الله إلا إلى الله، فهداه الله فأنشأ قصيدته العصماء «بانت سعاد» والتي تقع في ثمانية وخمسين بيتاً، يمدح فيها رسول الله والمهاجرين، ويستعطف رسول الله، ويطلب منه الأمان، ثم خرج حتى وصل المدينة، فنزل على رجل من «جهينة» كانت بينه وبينه معرفة، فأتى به المسجد، ثم قال له: هذا رسول الله، فقم إليه واستأمنه، فقام «كعب» إلى رسول الله حتى جلس بين يديه، وقال: يارسول الله إن «كعب بن زهير» قد جاءك ليستأمنك تائباً مسلماً، فهل أنت قابلٌ إن أنا جئتُك به؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال: يارسول الله أنا هو، أى: أنا كعب، ثم إن كعباً قام وأخذ ينشد قصيدته بين يدي رسول الله ﷺ وهو يستمع إليه، ومن بين ما جاء في هذه

القصيدة قوله :

أُنْبِتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي      والعفو عند رسول الله مأمولٌ  
وقد أتيت رسول الله معتذراً      والعدر عند رسول الله مقبولٌ  
مهلاً هداك الذي أعطاك نا      فَلَـةَ الْقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِظُ وَتَفْصِيلُ  
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم      أذنب، وقد كُثِرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ

إلى أن وصل إلى قوله :

إِنَّ الرَّسُولَ لِنُورٍ يُسْتَضَاءُ بِهِ      مَهْنَدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْئُولُ

وهنا جاءه الفرج من الله؛ فامتن عليه رسول الله ﷺ وألقى عليه برده التي كانت عليه لقاء ما قدم للإسلام من قول صادق، ولقد نالت هذه القصيدة شرف استماع النبي إليها، وإجازته لقائلها ومكافأته عليها، وهكذا فرج الله كرب «كعب ابن زهير» وأبدله بعقيدة الشرك عقيدة التوحيد الخالص، وهكذا تتضح لنا لآطاف الله بعباده، فقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبلها كيف يشاء، ومن هنا - وكما يقول العارفون-: إذا خُيرت أن تختار، فاختر ألا تختار، وقل كما قال النبي المختار: «اللهم خِرْ لِي وَاخْتَرْ لِي» آمين آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

## ٦- تفريج كرب نفاق حرمة

إن النفاق في حقيقة أمره لون من ألوان الاضطرابات النفسية، وسخيمة من سخائم النفس البشرية، يوقعُ صاحبه تحت قوتي جذب متصارعتين، إحداهما حقيقية، والأخرى زائفة وغيرُ حقيقية، أما القوة الحقيقية فهي تلك التي تعمل في صدره، وتجيئُ بها نفسه، إنها قوة الكفر - والعياذ بالله تعالى - وأما القوة الأخرى الزائفة فهي ذلك القناع الذي يلبسه للناس زوراً وبهتاناً، حيث يتصنع

الإيمان بالله تعالى، وكم تكلفه هذه القوة الأخيرة من تصنع وتظاهر عندما يرى المؤمنين بالله، على نحو ما عبر عنه رب العالمين في محكم كتابه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ (١) وعندما ينصرف المنافق إلى أترابه وأقرانه وأشباهه ونظائره، فإنه يحلق في سماء الفرح والسرور، وقد سجل القرآن عليهم ذلك في قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢) الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٣) ومن جهة أخرى فإنهم يزعمون أن تظاهرهم أمام المؤمنين بالإيمان هو نوع من الفتح الرباني، أو الكشف الصمداني، فكانوا يقولون لبعضهم : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤).

ولقد ورد عن أبي الدرداء - رضى الله عنه - أنه أخبر أن رجلا من المنافقين يقال له حرملة، قد أحس بالصراع النفسى الذى يعيشه من جراء النفاق، فهو يحمل بين جنبيه نفسا مضطربة غير مستقرة، تجبره على أن يلبس للناس أقنعة مزيفة ومصطنعة، فكان يحاول أن يقنع نفسه بهذا الصنيع الذى ارتضاه لنفسه مسلكا، ولكن هيهات هيهات!! فقد أصبحت نفسه غير محتملة لهذا الذى يجده من الضيق والشك والحرَج، حتى لقد شكل له هذا الشعور النفسى الضَّاجِر كرها شديداً يرجو تفرجه، ولكن كيف السبيل؟ لم يجد حرملة بدءاً من الذهاب إلى رسول الله ﷺ لكى يبثه شكواه، ويطلب منه العون على تفرج كربه، ويكمل أبو الدرداء روايته فيقول: جاء حرملة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: الإيمان هاهنا - وأشار إلى لسانه - والنفاق هنا - وأشار إلى صدره - ولا أذكر الله إلا قليلا.

(١) سورة البقرة : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٤ ، ١٥ .

(٣) سورة البقرة : ٧٦ .

وبهذا فقد عرض حرملة شكواه، وجهر بها إلى خير خلق الله، فهو يصف حال المنافقين بدقة وصدق، فهو يشعر بالمرض والعلة، ويلتمس الشفاء والدواء من خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ . .

ولقد تم تفريج كرب هذا المنافق بدعوات طاهرات دعا له بهن رسول الله ﷺ حيث أخبر أبو الدرداء أن النبي دعا له قائلاً:

«اللهم أعطه قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وارزقه حبي وحب من أحبني» فما فرغ رسول الله من هذه الدعوات حتى امتلأ قلب الرجل إيماناً بالله، وحباً لرسول الله، فما كان من حرملة وقد حول الله حاله إلى أحسن حال، وانطلقت مواهب الخير في نفسه، فتمنى من كل قلبه أن يذوق المنافقون حلاوة الإيمان الخالص بالله رب العالمين فقال: يارسول الله: أعرف ناساً من المنافقين كنت رأساً فيهم أى أنه يعرف جماعة من المنافقين كان هو زعيمهم - أفأتيتك بهم؟ فقال له النبي ﷺ: «من جاءنا استغفرنا له، ولا تهتك على أحد من الناس سترًا». وبهذا يضع النبي ﷺ النقاط على الحروف، فهو يعلم أن داء النفاق داء خبيث، ولن يبرأ العبد منه إلا إذا كانت عنده رغبة في الشفاء عن طريق المصارحة بالحقيقة كما فعل حرملة - رضى الله عنه - فمن أتى النبي طائعاً استغفر الله له، كما أنه ينبه حرملة بالأهتك أسرار الناس عن طريق إخباره إياهم بنفاقهم، فما أطيب شمائلك يارسول الله!!

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف يشقى المنافقون، وكيف يهنأ المؤمنون؟! فاحذر النفاق والمداهنة، واعلم أن النفاق أخفى على القلوب من ديب النمل، فسل الله من فضله، وأكثر من الصلاة والسلام على نبيه وعبدته سيدنا محمد، حتى تنجلي عن قلبك كل ظلمة ووحشة، والله هو الهادى إلى سواء السبيل.